ورحالة. وقد استفاد من خبراته هذه وترجمها إلى نوع من العلاقة المحدّدة بين الانسان وبيئته الطبيعية، وحوّلها إلى نظرية جغرافيّة لم تكن أقل حتمية من نظرية همبولت. وضمّنها كتابه جغرافية لانسان: Antropogéographie. وكانت هذه النظرية ترسيخاً لما قاله همبولت في حتمية خضوع الانسان للبيئة الطبيعية[٩].

وفي الوقت الذي اتجه فيه علماء الجغرافية البشرية الألمان إلى تأكيد حتمية تأثير الطبيعة في الانسان، وضرورة تكيّف الانسان مع معطيات البيئة الطبيعية التي وُلد فيها، كان ما يمكن أن يقدّمه الانسان في علاقته مع بيئته الطبيعية من اهتمامات علماء الاجتماع والانتروبولوجيا، وليس من اهتمام الجغرافيين. وكان من الطبيعي أن يعارض هؤلاء ما توصل إليه الجغرافيون الذين دخلوا إلى الجغرافيا من باب العلوم الطبيعية، فحاولوا التخفيف من تأثير البيئة الطبيعية، وأعطوا أهمية كبرى لفعل الانسان في علاقته مع هذه البيئة. إلاّ أنهم لم يقوموا بذلك إلاّ بسبب اطلالتهم على الجغرافيا البشرية من نافذة علم الاجتماع وعلم الاناسة (الأنتروبولوجيا) بشكل عام.

من هنا يمكننا التأكيد أن توجّهات الجغرافيا البشرية كانت محكومة في بداياتها باهتمامات الرواد العلمية والاجتماعية قبل أن تختطّ لنفسها طريقاً مستقلاً، وقبل أن تنتهج نهجاً خاصاً بها، وقبل أن تصير علماً له مبادئه وقوانينه وأساليبه وغايته. ومن هنا أيضاً يمكننا أن نفهم أسبقية الحتمية في نظرتها إلى الجغرافيا على نظرة الاجتماعيين والأنتروبولوجيين، قبل أن تسير في خط وسط بين هذين المنهجين مستفيدة قدر الامكان من التعارض بينهما، وآخذة منهما ما يمكن أن يوضّح مسالكها ويبلور مقاصدها وغاياتها.

٩- طارق صهيون، مدخل إلى علم الجغرافية البشرية، دار الشمال للطباعة والنشر، ١٩٨٨، طرابلس لبنان، ص: ٢١.

وهكذا ظهرت المدرسة الامكانية في الجغرافيا البشرية. وحمل لواء هذه المدرسة الفرنسيون وظهر الأمر وكأن الألمان هم الذين أسّسوا نظرية الحتمية في الجغرافيا البشرية، والفرنسيين هم الذين أسّسوا النظرية الامكانية في هذا الميدان، علماً بأن الحتمية والامكانية ظهرتا في أزمنة متوغّلة في التاريخ دون أن يكون ثمة اهتمام خاص بالجغرافيا كعلم مستقل عن العلوم الأخرى.

كان أول ظهور لمفهوم الامكانية في الجغرافيا البشرية على يد الجغرافي الفرنسي "لوسيان فافر Lucien Febvre" (١٨٧٨ - ١٩٥٦). وقد وضع الحد، بذلك، لتأثير الحتمية التي انتشرت على يد الألمان القادمين إلى الجغرافيا البشرية من حقول أخرى مجاورة. وقد ضمّنت نظريته هذه كتابه "الأرض والتطور الانساني" الذي نشر في وقت متأخر عن بداية ظهور النظرية بشكلها العملي.

وتطورت النظرية الامكانية على يد الجغرافي الفرنسي "فيدال دو لا بلاش" De La Blache (١٨٤٥ - ١٩١٨)، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للجغرافيا البشرية الحديثة.

كان دو لا بلاش مؤرخاً يعمل في حقل التعليم، واستهوته مسائل الجغرافيا البشرية، فترك كل شيء وانصرف إلى الاهتمام بها. فأسس المدرسة الجغرافيّة الفرنسية، ووضع أسس الجغرافيا البشرية الحديثة. ونشر كتابه "أسس الجغرافيا البشرية Principes de la géographie humaine"، واهتم فيه بدراسة التطور التاريخي للظاهرات البشرية والطبيعية. إلاّ أن ما قدّمه كان مناقضاً لما قدمه الألمان، وخصوصاً الجغرافي راتزل. وقد "اعتبر أن المعطيات الطبيعية هي بمثابة إمكانيات لا ضرورات وأن الانسان يختار منها ما يلزمه ويتناسب مع وضعه"[١٠]. ومع ذلك فقد بقي دو لا بلاش متأثراً بالنظرية الألمانية التي اعتبرت الجغرافيا علم الأمكنة

١٠- صهيون، المرجع نفسه، ص: ٢١.

والبيئات من حيث أنها تبحث في كيفية التفاعل بين القوانين الطبيعية والكائنات الحية في الامكنة المختلفة من الأرض، ودور الانسان في عملية التغيير في هذه العلاقات على قدر مستوى حضارته وتقدمه الاجتماعي. وهو يعتبر أن النشاط العمراني للانسان هو الذي يغيّر مواقع الطبيعة ويكسبها مميّزاتها الخاصة بها.

وظهر في فرنسا أيضاً الجغرافي "جان برين" الذي اهتم بدارسة مراكز العمران، وأشكال المنازل الريفيّة، ودراسة القرى والمدن. ونشر كتابه عن الجغرافيا البشرية Géographie humaine في سنة ١٩١٠، وقد لاقى النجاح الكبير في فرنسا وخارجها. وأعيد طبعه مراراً. ولا يزال من الكتب الهامة في هذا الموضوع. ويعتبر "برين" من تلامذة "دو لا بلاش"، ومن أوائل المهتمين بدراسة الجغرافيا البشرية في فرنسا[١١].

ويعتبر "ديمانجون Demangeon" من أهم الجغرافيين في فرنسا. ظهر له كتابان بعد وفاته هما: مشاكل الجغرافيا البشرية Problèmes de géo-humaine في سنة ١٩٤٢، وجغرافية فرنسا الاقتصادية. ودرس فيهما المجتمعات البشرية في نطاق البيئة الطبيعية. واهتم بدراسة مجهود الانسان في تعديل البيئة الطبيعية بواسطة أعمال الحفر والأعمال الزراعية وشق طرق المواصلات. ودرس أنظمة الحياة في مناطق متعددة من العالم، ودرس نماذج عن كيفية استغلال البيئة. ودرس توزيع السكان وكثافتهم وأماكن تجمعاتهم الرئيسية، والهجرة. واستخلص من هذه الدراسات المبادىء العامة للجغرافيا البشرية رافضاً الآراء الحتمية، وضارباً أمثلة عديدة على إمكانية الانسان للتدخل في عوامل البيئة الطبيعية المختلفة والتأثير فيها لما فيه مصلحته - كما هو الحال في زراعة بعض المناطق الصحراوية وبناء الطرق والسكك الحديدية في المناطق الجبلية.

١١- الصفار، دراسات في الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ١٥- ١٦.

ويعتقد "ديمانجون" أن دراسة الجغرافيا البشرية لا بدّ أن تبنى على أساس الوحدات الاقليمية الطبيعية[١٢].

وثمة الكثيرون أيضاً من الذين ساهموا في إغناء النظرية الحديثة في الجغرافيا البشرية منهم الجغرافي الاميركي "جورج مارش" والروسي "سيمونوف" والفرنسي "ريكلوس" والبريطاني "ماكندر".

وقد أسفر عن تأسيس علم الجغرافيا البشرية الحديثة نتائج هامة منها، أولاً، تحوّل الجغرافيا إلى علم له قوانينه ومبادئه العامة، تبحث في العلاقات بين الانسان والبيئات الطبيعية في كل منطقة من العالم. وثانياً، استقلال علم الجغرافيا البشرية عن العلوم الأخرى وخصوصاً علم التاريخ. وثالثاً، أصبح لها معارفها الخاصة التي بدأت بالانتشار عن طريق التدريس في المدارس والجامعات، والاهتمام بتدعيم أسسها وبلورة غاياتها ومقاصدها.

وإذا كانت الجغرافيا البشرية قد ظهرت على غير أيدي المتخصصين من المهتمين بالعلوم الطبيعية والتاريخ، فانها ثبّتت أقدامها، وحصلت على استقلاليتها على أيدي من تتلمذوا على راتزل ودو لا بلاش وغيرهما من الرواد الاوائل. ولم تصل إلى ما وصلت إليه حديثاً إلا بمجهود من برز من المتخصصين بها الذين توزّعوا بأفكارهم الجغرافيّة إما على المدرسة الحتميّة بقالبها الحديث، أو المدرسة الامكانية التي أخذت باعتبارها ما تقدمه الطبيعة كأمور حتمية على الانسان التعامل معها على قدر ما يقدمه له فكره من طرق التعاطي مع ما تحتمه الطبيعة، فيحوّل قسماً كبيراً من هذه الحتمية إلى مجرد إمكانيات يمكن للانسان أن يطوّعها لمصلحته.

١٢- المرجع نفسه، ص: ١٦.

الفصل الثاني

اتجاهات الجغرافيا البشرية

احتلّت الجغرافيا البشرية مركزها إلى جانب العلوم الاجتماعية الأخرى في بداية هذا القرن. وتميّزت بانتشارها السريع في معظم البلدان، ودخلت البرامج الدراسية في المدارس والجامعات وبالتأثيرات ذاتها التي تميّزت بها البلدان التي اهتمت بهذا العلم. فانتقلت اتجاهاتها إلى خارج أوروبا بتأثير الدول الأوروبية ذاتها التي كان لها توجّهات مختلفة باختلاف تطور هذا العلم لدى كل منها. وما وصل إلى بلدان العالم الثالث كان متأثراً بشكل جلي بالفكر الجغرافي الاوروبي على اختلافه.

إلا أن هذه التوجهات كانت محصورة بشكل عام بأفكار المدرستين الجغرافيتين الأوروبيتين: المدرسة الحتمية والمدرسة الامكانية. ولكن التطورات التي حصلت بعد الحرب العالمية الأولى جعلت هاتين المدرستين تتفرعان إلى عدة اتجاهات تأخذ بعين الاعتبار ما هو منطقي وصحيح في المدرسة الحتمية وما هو منطقي وصحيح في المدرسة الامكانية متخذة منهما عناصر أساسية لبناء اتجاهات تهتم إما بتكيّف الانسان مع بيئته الطبيعية من خلال امكانياته المادية والفكرية أو من خلال أنماط حياته، أو بتركيزه على المكان أو المشهد بكل ما يميّزه بأشكاله الطبيعية وتفاعلاته البشرية، أو من خلال التركيز على أولوية العوامل الاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي تساهم في تميّز المكان

(المجتمع)، أو الاهتمام بالاقليم من كافة نواحيه الطبيعية والبشرية وطرق التفاعل بينهما[1].

إلاّ أن ما يهمنا في هذا المجال هو التركيز على ظروف نشأة المدرسة الحتمية وأهميتها في بلورة مفهوم الجغرافيا البشرية. والانتقال المنطقي إلى ظروف نشأة المدرسة الامكانية التي استفادت من سلبيات المدرسة الحتمية، لينتهي الأمر إلى المدرسة الاقليمية في الجغرافيا التي أخذت من العوامل الطبيعية ومن تأثير الانسان في البيئة الطبيعية عناصر أساسية لإظهار التميّز بين المجتمعات الانسانية ونشوء فكرة القومية والانتماء القومي.

المدرسة الحتمية

كانت الفكرة الحتمية وليدة تطورات حصلت للجغرافيا البشرية منذ بدايات وجودها كأفكار مبعثرة في خدمة توجّهات عديدة كانت تشغل تفكير الكتّاب والفلاسفة والرحالة والمؤرخين منذ أقدم العصور. وكانت الأفكار المتعلقة بتأثير البيئة على الانسان من الأفكار شبه الراسخة حتى بداية هذا القرن. ولا يزال تأثيرها قائماً حتى اليوم من خلال المدافعين الكثر عن فكرة الحتمية وإن كان بحدودها الدنيا.

تقوم فكرة الحتمية على أساس واضح وبسيط وهي أن الانسان ينفعل بما تقدّمه الطبيعة. وهو بذلك يتأثر بالمكان الموجود فيه وبمناخه وتربته وكمية مائه وبالحيوانات التي تعيش حوله وبما تقدّمه هذه الطبيعة من إنتاج نباتي. لذلك فهو يحسّ بأنه محكوم بهذه المعطيات الطبيعية، ويجد أنه من المفروض عليه أن يتكيّف مع هذا الواقع، ويتعوّد على العيش في هذه البيئة التي دخلت إلى عظامه

١- للتفصيل حول هذه الاتجاهات وكيفية انبثاقها من أفكار المدرستين الحتمية والامكانية، انظر:
- صهيون، مدخل إلى علم الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ٢٤- ٣٠.

ولحمه وعقله وروحه، كما وجّهت أفكاره، وغيّرت من ألوانه وأشكاله وقوّت من بعض عضلاته وأضعفت بعضها الآخر، كما تقول "مس سمبل". وهذا يعني طبعاً أن البيئة هي كل شيء في حياة الانسان، وأن التطور البشري والجهد الانساني لا يخرجان عن كونهما نوعاً من التفاعل السلبي مع البيئة وخضوعاً لها[٢].

لا شك أن البيئة الطبيعية هي السبب في اختلاف الناس وتمايزهم. فسكان السواحل يختلفون عن سكان الداخل، وسكان الأودية النهرية يختلفون في معيشتهم وفي أنماط حياتهم وعلاقاتهم عن سكان الصحارى. وسكان السهول يختلفون في حياتهم وفي عاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم ونظرتهم إلى الحياة عن سكان المناطق الباردة الذين يتميّزون بأنماط حياة وأنواع سلوك مختلفة تماماً. كل ذلك بسبب اختلافات في البيئة الطبيعية التي تتميّز بمواصفات وبخصائص طبيعية من الصعب على الانسان أن يؤثّر فيها أو يقى بمنأى عن تأثيرها.

وقد تعرّضت هذه النظرية للنقد لأنها ترد كل الاختلافات بين الشعوب إلى الاختلاف بالبيئة الطبيعية، ويتجاهلون الاختلافات بين المجتمعات البشرية التي توجد في بيئات طبيعية متماثلة من حيث الموقع والمناخ والتربة والمياه. ويعتبر هؤلاء النقاد أن رد التفاوت في درجة تقدم المجتمعات إلى مجرد اختلاف في البيئات الطبيعية هو نوع من الهروب من مواجهة الأسباب الحقيقية لوجود هذا التفاوت. لذلك يبقى الحتميون، برأي هؤلاء النقاد، في اطار العموميات، ولم يدخلوا إلى لب المسألة، ما عدا كتابات قليلة عالجت هذه المسألة بنوع من الموضوعية وبُعد النظر منها كتاب "مس سمبل".

---

٢ - الصقار، دراسات في الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ٢١.

لقد كانت الاختلافات في أنماط حياة الناس موضع اهتمام الكثير من الباحثين والفلاسفة القدماء. فقد حاول هؤلاء تفسير التناقضات بين الآسيويين والأوروبيين بردِّها إلى اختلاف البيئة الطبيعية التي يعيش فيها كل من الشعبين. وقد أرجع هيبوقراط في سنة ٤٢٠ق.م. التناقض الواضح بين نمط حياة كل من الشعبين إلى صلاحية البيئة الآسيوية وسهولة الحصول على المواد الغذائية فيها، وإلى فقر البيئة الاوروبية التي لا يمكن أن تعطي إلاّ بالمزيد من الجهد والنشاط الانسانيين.

أما أرسطو، الفيلسوف اليوناني الشهير، فقد أورد في كتابه "السياسة" تمييزاً واضحاً بين سكان المناطق الباردة الذين يتّصفون بالشجاعة التي أبقتهم أحراراً مع أنهم لا يعرفون التنظيم السياسي إلا في حدوده الدنيا، وبين الآسيويين الأذكياء وأصحاب المهارات الفنية الكبيرة والمعروفين بالتردد والجبن مما جعلهم محكومين بغيرهم، وبين مواطنيه الاغريق الذين يجمعون، برأيه المنحاز طبعاً إلى أبناء قومه، بين مميّزات الآسيويين والأوروبيين لأنهم في المنطقة الفاصلة بين هذين الشعبين[٣].

ويقدم المؤرخ الروماني سترابون في القرن الأخير قبل الميلاد أفكاراً متشابهة عندما حاول أن يربط بين موقع ومناخ روما وقوّتها العسكرية. كما ظهرت هذه الأفكار عند الكثير من الكتّاب والفلاسفة القدماء.

أما في القرون الوسطى المسيحية، فقد سادَ التفكير السكولاستيكي المتأثر بالكنيسة ورجال الدين فيها الذين كانوا يربطون أية فكرة علمية أوغير علمية بما جاء في الكتاب المقدس. لذلك فقد وقفوا حجر عثرة أمام أي بحث علمي أو تفكير عقلاني ينظر إلى الفروقات بين البشر. وكانوا يعتبرون أن هذه الفروقات

٣- أرسطو، كتاب السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، القاهرة، ص: ٢٥٤- ٢٥٥.

هي من صنع الله وخلقه ولا يجوز البحث فيها. وتفسيرها بغير هذا المنطق، وبغير ما تقوله الكنيسة ورجال الدين فيها، يعتبر خروجاً عن السلطة الدينية وتحدّياً للكنيسة[٤].

مقابل هذا الجهل في القرون الوسطى الاوروبية، كان العرب ينعمون بالبحث العلمي في كثير من الميادين وخصوصاً في الجغرافيا، وإن كان في أفكار منها متفرقة. وهم وإن اعتمدوا على كتابات اليونانيين في كثير من العلوم ومنها الجغرافيا، فإنهم أضافوا إليها الكثير. ويعتبر ابن خلدون، المفكر العربي اللامع في القرن الرابع عشر للميلاد من المؤمنين بحتمية البيئة، والمناخ منها خاصة، على أحوال البشر، رغم أنه كان من المؤرخين ومن فلاسفة التاريخ وواضعي أسس علم الإجتماع، وهو ما عبّر عنه "بعلم العمران". وقد سبقه إلى ذلك عالم عربي آخر ظهر في الأندلس وقدم كتاباً هاماً في الموضوع وهو صاعد الاندلسي (١٠٢٩- ١٠٧٠م) صاحب كتاب طبقات الامم[٥]، حيث يعتبر أن الأمم ترتقي حسب موقعها وحسب نوع المناخ فيها وغير ذلك. إلاّ أن ما قدمه ابن خلدون (١٣٣٢- ١٤٠٦) كان أشمل وأوضح في مقدمته الشهيرة التي أظهرت فلسفته الواضحة في علم التاريخ وكيفية نشوء المجتمعات الانسانية والأطوار التي تمر بها وكيفية نشوء الدولة ومنازع الملك والعصبية وغيرها[٦].

وما يهمنا من مقدمة ابن خلدون هو الفصل الأول من الكتاب الأول الخاص بالعمران البشري ودراسة الأقاليم الجغرافية وتأثيرها في حياة الانسان حيث يذكر خصائص ومميزات الاقاليم السبعة فيقول:

"إن المعمورة من هذا المنكشف من الأرض إنما هي وسطه لإفراط الحر في

٤- الصقار، دراسات في الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ٢٣- ٢٤.

٥- صاعد الاندلسي، طبقات الامم، تحقيق حياة بو علوان، دار الطليعة، ١٩٨٥، بيروت، ص: ٤١- ٤٤.

٦- ابن خلدون، المقدمة، مذكور سابقاً، زخصوصاً الفصول الثلاثة الأولى مع مقدماتها.